العدد ٤٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥

التِّبيانُ في أُصُولِ تربيةِ الصِّبيانِ

ودَوْرُها الأسَاسُ في ازْدِهَارِ الاقتِصَادِ ونَهْضَةِ الأوْطانِ

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

بسمِ اللهِ ربِّ العبادِ، والحمدُ للهِ واهبِ الأولادِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على سيِّدِ العبادِ وإمامِ العُبَّادِ، وعلى آلهِ أُولي الرَّشادِ وصَحبِهِ ذَوي الإرشادِ؛ مَن نشروا النُّورَ وبدَّدوا الظَّلامَ، وأشادوا الحَضارةَ في البلادِ، وعلى مَن سارَ على دَربِهم وسَعى في إصلاحِ البلادِ، وبذرَ بُذورَ السَّعادةِ بينَ الأولادِ، ورَجا السقايةَ مِن مُصلِحِ القلوبِ وخالقِ الأجسادِ؛ لِيكُونوا رِجالَ الإسعادِ، وبُناةَ الأمجادِ، وسَادةَ البلادِ؛ وبَعدُ:

فإنَّ المُتأمِّلَ في فِقهِ النفسِ وتزكيتِها، وفنِّ تنميةِ الأجسادِ وتربيتِها؛ يَجِدُ أنَّ فُقهاءَ الشَّرعِ كانُوا أطِبَّاءَ الأرواحِ والقلوبِ والأجسادِ؛ ولِمَ لا وهُمْ يَستمِدُّونَ النُّورَ مِن اللهِ النُّورِ وخالقِ النُّورِ ومُنزِّلِ النُّورِ، وجاعلِ النَّبيِّ مُحمَّداً نُوراً على نُورٍ صلَّى اللهُ وسلَّم عليه وعلى آلهِ وصحبِهِ وأتباعِه مَن كان هَديُهُم نُوراً على نُورٍ (نورَ الشرعِ على نورِ العقلِ).

ومِن هؤلاءِ الفُقهاءِ وأطبَّاءِ الأنفُسِ حُجَّةُ الإسلامِ مُحمَّدُ بنُ مُحمَّدِ بنِ مُحمَّدٍ الغزَّاليُّ رَحِمهُ اللهُ تعالى الذي ألَّفَ وصنَّفَ الكتبَ الجامعةَ الماتِعةَ؛ ومنها كتابَهُ الشهير"إحياءُ عُلومِ الدِّينِ" والذي عَكفَ فُقهاءُ الشرعِ وعلماءُ النفسِ على دراستِه وتدريسِه، وشَرحِه وتوضيحِه، والاقتباسِ مِن أسلوبِه وتبويبِه وتنقيحِه، والاختصارِ من أفكارِه والانتصارِ له أو التَّهجُّمِ عليه؛ ما بينَ مُحبٍّ وكَارِهٍ، والحُكْمِ على الحديثِ وبيانِ ضَعيفِه وحَسَنِه وصَحيحِه، وكان مِن هؤلاءِ الفُقهاءِ المُحدِّثينَ فضيلةُ الإمامِ مُحمَّد جَمال الدِّينِ القاسميِّ الدِّمَشقيّ رحمهُ اللهُ تعالى وسمَّى كتابَه هذا"موعظةَ المُؤمنينَ مِن إحياءِ عُلومِ الدِّينِ" حيث جاءَ باب "بيانُ الطريقِ في رياضةِ الصِّبيانِ في أوَّلِ نُشوئِهم ووَجْهِ تأديبِهم وتحسينِ أحوالِهم"كلاماً في غايةِ الأهمِّيَّةِ اقتبسُ مِن نبراسِهما وَمَضاتٍ وإشراقاتٍ؛لبيانِ مدى أثرِ التربيةِ في الطفولةِ، وخُطورةِ تأثيرِها في مراحلِ الحياةِ وكمالِ الرُّجولةِ؛ حيث بيَّن الإمامُ الجليلُ أنّ زيادةَ الرفاهيةِ تُؤدِّي إلى ترهُّلِ الأجسامِ، وتبلُّدِ المشاعرِ، وانعدامِ الإحساسِ؛ وربَّما أدَّت في كثيرٍ من الأحيانِ إلى مَيلِ الذُّكورِ إلى التأنُّثِ والإناثِ إلى التَّخنُّثِ، واستبدالِ الأنوثةِ بالرِّجولةِ وتغييرِ الرجولةِ بالأنوثةِ، وكما قِيلَ في المَثلِ العربيِّ الأصيلِ:

"اسْتَرجَلَت المرأةُ، واستنْوقَ الجَملُ" : أي انقلبت المرأةُ من أُمٍّ حَنونٍ إلى رَجُلٍ عُتُلٍّ، كما انقلبَ الرجلُ من سيِّدٍ مُطاعٍ إلى أَمَةٍ خادمٍ، وتبدَّدتْ معالمُ الأنوثة الجاذبة اللطيفة إلى ملامح الخُنوثة الكاذبة المُزيَّفة؛ لأنَّها تبرَّجَتْ وتَفرنجَتْ، وتَغرَّبَتْ فاغْتربَتْ؛ ولكنَّ الحقيقةَ المُرَّةَ أنَّها في الحياة ما تَربَّتْ؛ بل يَداها بالتراب تربَتْ، ومن الجناية ما نجَتْ؛ بل لجَّتْ ووَلجَتْ، ولَيتَها كانت المرأةَ الحَصانَ الرَّزانَ عِفَّةً وحياءً، وحِنْكَةً وحَناناً، ورحمةً وحِكمةً، وأصبحَ الرَّجلُ– إلاّ مَن رَحِمَ اللهُ– كالخُنثى ليس فيه من معالمِ الرُّجولة إلَّا الاسمُ، ومن ملامح الذُّكورة إلَّا الرَّسمُ؛ لأنّه مَزَجَ السُّمَّ بالدَّسَمِ، فقد وردَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: "لعنَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّمَ المُخنَّثينَ منَ الرِّجالِ والمُترجِّلات من النِّساء" (مُسنَد أحمد)، وظنَّ أنَّ الرُّجولةَ بالسِّمنة والبدانة، وما درَى أنَّ "البدانةَ مُدانةٌ"، وأنَّ "الرجولةَ ليستَ بجَمعِ القُروشِ وترهُّلِ الكُروشِ"؛ ولكنَّ "الرجولةَ نعمةٌ وأمانةٌ" فقد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم: "إنَّ اللهَ يُبغِضُ أهلَ البيتِ اللَّحميِّينَ، والحَبْرَ السَّمينَ" (رواه البيهقي) وعن سيِّدنا عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ قال: "إيَّاكُم والبِطنةَ والشَّرابَ؛ فإنّها مَفسدَةٌ للجسدِ تُورثُ السَّقمَ، مَكسَلةٌ عن الصلاةِ .وعليكُم بالقصدِ؛ فإنها أصلَحُ للجسدِ وأبعدُ من السَّرفِ، وإنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمينَ" (أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي)، وما عَلِمَ أنّ العربَ يُحبُّونَ "الغَزالَ" ويتغزَّلونَ برَشاقته وجَمالِ حَدقته، وسرعةِ عَدوِه وجَريه، ويتعشَّقونَ "الحِصانَ"؛ لأصالته وذكائه، وحُسنِه ووفائه، ويَقظته ونَباهته، ويتغنَّونَ ب "الجَمَلِ" لجَماله وصبْرِه، وحَنانه وجَلده؛ فـ "الإنسانُ ابنُ بيئته وتربيته" وهكذا يَنشأُ الإنسانُ العربيُّ الأصيلُ النبيلُ؛ خُلقاً وسُلوكاً ومنهجَ حياةٍ بين الأحياءِ يَستمدُّ الهدي من القرآنِ الكريمِ، ويَستنيرُ بسَنا سنَّةِ خيرِ الأنامِ؛ ليُبدِّدَ سُحُبَ الظلامِ، ولا يتغرَّبَ فكرياً ولا سلوكياً فيصبحَ في "حَيْصَ بَيْصَ"، "لا إلى شرقٍ ينتمي، ولا إلى غربٍ يهتدي"؛ بل (ظلماتٌ بَعضُها فوقَ بَعض) (النور: ٤٠) " أذابَ شخصيَّتَه، وأضاعَ هُويَّتَه، وتَنكَّرَ لدينه، وأعرضَ عن شرعِ رَبِّه وخالقه، وتنكَّبَ هديَ نبيِّه مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحبه وسلَّمَ وصارَ جنساً ثالثاً؛ بدلَ أن يكونَ مُنتجاً؛ صار مُستهلكاً، وبدلَ أن يُصبحَ مُنفقاً؛ أضحَى مُسرفاً، وبدلَ أن يكون مُبتكراً؛ظلَّ مُتنكِّراً، وبدلَ أن يكون مَتبوعاً؛ باتَ تابعاً، وبدلَ أن يكون سعيداً؛ أمسى تعيساً؛ لأنّه أبدلَ الظلامَ بالنور؛ فاستُبْدِلَ، وبدلَ أن يستخدمَ الدُّنيا للدِّينِ استخدمَ الدِّينَ للدُّنيا؛ فاستُخدِمَ؛ فالعبدُ يُطيعُ سيِّدَه؛ لأنّ الأُممَ المَغلُوبةَ تُقلِّدُ الأُممَ الغالبةَ (فكرياً وإيمانياً وسُلوكياً وأعرافاً وأعياداً) كما ذكرَ ابنُ خُلدون رحمةُ اللهِ تباركَ وتعالى عليه من فقيهٍ نزيهٍ، وعالمِ اجتماعٍ نبيهٍ، والولدُ يُقلِّدُ أباهُ، فالولدُ يَنزِعُ إلى أُمِّه أو أبيه، والبِنتُ تُحاكي أُمَّها وتُعجبُ بأبيها فـ "كُلُّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبةٌ إلاّ.." ومَن كان تابعاً مُقلِّداً فليس قرارُه من مُعتَقدِه وعقله، وليست صناعتُه من ابتكارِ تفكيرِه وثمرةِ يده، فـ "مَن كان فلْسُهُ من فأسِه كانَ قَرارُه من رأسِه"؛ بل تُملى عليه الشروطُ، وتُمارسُ عليه الضُّغوطُ؛ لأنّ العقلَ معقولٌ، فصار في عيشه ومعيشته كالبقرةِ الحلوبِ حقُّه مسلوبٌ، وهذه حالُ مَن تغرَّبَ وتغربلَ، وتبرَّجَ وتجبَّرَ، ونَهَجَ نهْجَ العَجمِ وتفرنجَ. ولله درُّ الشاعرِ القائلِ:

يَشبُّ الفتى على مَا كان يَرضَعُهُ فأمُرْ بحَسْـــــمٍ وإلَّا حظُّكَ النَّدَمُ

وأن يُعلَّمَ قولَ أميرِ المُؤمنينَ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللّهُ عنهُ: "القلوبُ أوعيةٌ، والشِّفاهُ أقفالُها، والألسنةُ مفاتيحُها؛ فلْيَحفَظْ كُلُّ إنسانٍ مِفتاحَ سرِّهِ" وأن يُعوِّدَ اللسانَ النُّطقَ بما يَنفعُه في الدنيا ويُنجيه في الآخرة؛ لقولِ الشاعرِ: "

عوِّدْ لسانَكَ قولَ الخيرِ تحظَ بهِ إنَّ اللســـــــانَ لَما عوَّدتَ مُعتادُ

مُوكَّلٌ بتقاضي ما سَـــنَنْتَ لهُ فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وانْظُرْ كيفَ تَرتادُ

كما لا يَخفى على الناقدِ البصيرِ في أحوالِ النفسِ، وشؤونِ الناسِ، وقضايا المجتمعِ في(المطعَمِ والمأكَلِ والمشرَبِ والملبَسِ والمأوى والفكرِ والسلوك) أنّ التعوُّدَ على الطَّيِّبِ الحلالِ سببٌ للعملِ الصالحِ قال اللّهُ تعالى: "يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُلُوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ واعمَلُوا صالحاً إنِّي بما تعمَلونَ عليمٌ" (المؤمنون: ٥١)؛ فقد قالَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وآلِه وصحبِه وسلَّمَ: "طلبُ الحَلالِ واجبٌ على كلِّ مُسلمٍ" (رواه الطبراني في الأوسط) ووَرَدَ عن أبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللّهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلّى اللّهُ عليه وصحبِه وآلِه وسلَّم: "لا يَدخُلُ الجنَّةَ جَسدٌ غُذّيَ بحَرامٍ" فإذا ما تعوّدَ الصَّبيُّ وتعوَّدتِ البنتُ على الطِّيِّبِ الحلالِ نشآ على طاعةِ اللّهِ تعالى قوَّةً في يقينٍ، وعزَّةً في دينٍ، ورجاحةً في عقلٍ، وبسطةً في جسمٍ، ونُبلاً في سلوكٍ، وسلامةً في صَدرٍ، وطُهراً في قلبٍ، وعِفَّةً في النفسِ، مع الالتزامِ بآدابِ الطعامِ والشرابِ؛ من غسلٍ للوجهِ واليدينِ فقد قال رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "بركةُ الطعامِ الوُضوءُ قبلَه والوضوءُ بعدَهُ" (رواه الترمذي)، وقال رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وآلِه وصحبِه وسلَّمَ: "إنّ الشَّيطانَ حَسَّاسٌ لحَّاسٌ فاحذَرُوهُ على أنفسِكُمْ؛فمَنْ باتَ وفي يدِه غَمَرٌ فأصابَهُ شيءٌ فلا يَلُومَنَّ إلاّ نفسَه" (رواه الترمذي)كما تُعلَّمُ الأولادُ استعمالَ السِّواكِ، وتُبيَّنُ لهم مكانتُه في السُّنَّةِ، والصِّحةِ، والذَّوقِ، والجَمالِ، والوقايةِ من الأمراضِ، وإرضاءِ ربِّ العبادِ، ومحبَّةِ الملائكةِ له وتحبيبه للأولادِ؛ ليُصبحَ طاهرَ الفمِ واللسانِ والأسنانِ، كارهاً لكُلِّ مُستقذَرٍ ومُحرَّمٍ ومُستقبَحٍ ك (الأوساخِ والنَّجاسةِ والتباهي بالمَعاصي..، والخَمرِ والدُّخَانِ والقاتِ والنرجيلَةِ –الأركيلة– والمخدّرات..، والبَذاءةِ والشتمِ والسُّبابُ والعُري والمذاءِ..)؛ لقولِ الرَّسولِ صلى اللّهُ عليه وآلِه وصحبِه وسلَّمَ: "مَنْ لَعِبَ بالنَّردَشيرِ فكأنَّما غَمَسَ يدَهُ في لَحْمِ خنزيرٍ ودَمِه" (رواه أبو داود) و"سُبَابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ وقتالُهُ كُفْرٌ" (رواه البخاري)؛ فلا يشمَّ إلاّ الروائحَ الزَّكيةَ؛ لينعشَ رُوحَه، ويُطيِّبَ نفسَهُ، ويُؤنِسَ جليسَه وأنيسَه من الإنسِ والملائكةِ، وكذلك من إجادَةِ مَضغِ الطعامِ جيِّداً لهَضْمِه جُزئيّاً، والتذوُّقِ لأطايبِ الطعامِ، وبيانِ حُلوها ومُرِّها وحامضِها وملحِها ومزّهاَ، وتمييزِ البارد والحارِّ والدَّافيء، وشكرِ المُنعمِ سُبحانَه وتعالى على ما أعطى وتفضَّل,وأن نُعلِّمَه الصِّدقَ والقصدَ في الكلامِ وعدمَ الثرثرة(لسانياً وهاتفياً والكترونياً)؛ فالمَلَكانِ الشاهدانِ يُسجِّلانِ فـ "ما يَلفظُ من قولٍ إلَّا لديه رَقيبٌ عَتيدٌ(سورة ق: ١٨)"كما أنَّ الثرثرةَ فيها من التعثُّرِ والإحراجِ ودفعِ الفواتيرِ ما فيها، وقد قال الطَّبيبُ ثابتُ بنُ قُرَّةَ– أعلمُ مُعاصريه بالفلسَفةِ والطِّبِّ–: "راحةُ الجسمِ في قلَّةِ الطعامِ، وراحةُ النفْسِ في قلةِ الآثامِ، وراحةُ القلبِ في قلَّةِ الاهتمامِ، وراحةُ اللسانِ في قلَّةِ الكلامِ" . وقال الشاعرُ مُبيِّناً آدابَ النُّصحِ للبَنين:

قُلْ للبَنينَ مقالَ صدقٍ واقتَصِدْ صَدرُ الشَّبابِ يَضيقُ بالنُّصَّاحِ

وأن نُعلِّمَه خِصالَ الفِطرَةِ الرَّبَّانيَّة؛ حيث قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "عَشرٌ من الفِطرة: قصُّ الشَّارب، وإعفاءُ اللحية، والسِّواكُ، واستنشاقُ الماء، وقصُّ الأظافر، وغَسلُ البَراجم، ونتفُ الإبط، وحَلْقُ العانة، وانتقاصُ الماء"، قال الراوي ونسيتُ العاشرةَ إلاّ أن تكونَ المضْمَضَةُ أو الختانُ (رواه مسلم). وقد قال صلّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلّم: "مَنْ كانَ له شَعَرٌ فَلْيُكْرِمْهُ" (رواه أبو داود) أي: أنْ يكونَ شامةً بين الناس؛ يمشطُ شَعَرَهُ، ويُرَجِّلُهُ، ويُزيِّنَهُ، ويُجَمِّلُ ثيابَه، وأن يكونَ قولُ اللهِ تباركَ وتعالى نبراسَه: "يا بَني آدَمَ خُذوا زِينتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا إنَّه لا يُحِبُ المُسْرِفينَ" (الأعراف: ٣١) وأن نُعلِّمَه ونُعوِّدَه النومَ باكراً والاستيقاظَ باكراً؛ ليتوضَّأَ، ويُصلِّيَ؛ فيُصبحَ نشيطاً، طيِّبَ النفس، قويَّ الجسمِ طائعاً للهِ تباركَ وتعالى، ولا يكونَنَّ نَؤومَ الضُّحى؛ فيصيرَ خاملاً، خبيثَ النفس، بَديناً الجسمِ مُخالِفاً فِطرةَ اللهِ تباركَ وتعالى، وأن نُعلِّمَه الصبرَ كالإيثارِ **سُلوكاً علمياً وعملياً** تارةً، وأن نُعوِّدَه الصومَ ونُشجِّعه ونُكافأه على ذلك أحياناً أُخرى، وُصولاً لِلسموِّ الأخلاقيِّ والرُّقيّ الحضاريِّ. وإذا ما شربَ الفتى وشربتِ الفتاةُ الماءَ العذبَ الفُراتَ طاعةً للهِ تباركَ وتعالى، وتعوَّدَ شُربَ الأشربةِ الحلالِ مِمّا نبتَ في أرضه وبلده (جُذوراً وأغصاناً وأوراقاً وثماراً) علمَها مَن علمها من أهلِ العلمِ والخبرةِ والمَبرَّة (علماءِ التغذيةِ والصَّيدلةِ وخُبراءِ الصِّحَّةِ والكيمياء)؛ لتكونَ أساساً في التغذيةِ الصِّحِّيَّةِ الصَّحيحةِ السليمة، وسبيلاً للوقايةِ من الأمراضِ الظاهرةِ والباطنة، وتعلَّمَ صناعةَ المربَّيات، وحفظَ المأكولاتِ والمشروبات؛ فيأكُلَ من عَملِ يده بعيداً عن كلِّ ما يضرُّ بالإنسانِ المُكرَّم (قلباً وعقلاً، جسماً وروحاً) من أغذيةٍ محلية أو مُستوردةٍ لا يعلمُ حقيقتَها إلاّ أصحابُها ومَن اطلعَ على دواخلها من الخُبراء؛– وفي خَيراتِ البلدِ غنىً عن المُستَورد إذا ما استُثمِرَ بأمانةٍ وكفاءةٍ وخبرةٍ– وعلى كُلٍّ فهذه الأغذيةُ ظاهرُها البهرجةُ والجمالُ، وحقيقتُها استنزافُ الطاقات، وهدفُها سلبُ الأموال؛ لينتجَ جيلٌ أجسامُه أجسامُ البغال "بدلَ الغزال" وأحلامُه أحلامُ العصافير "بدلَ عقولِ الرجال"، وكما قيل: " قل لي ما تأكلُ؟ وما تشربُ؟ وما تلبسُ؟ أقلْ لك مَن أنتَ". وأمّا على صعيدِ اللباس فنرى أنّ مَن لبسَ لباساً تأثَّرتْ نفسهُ به؛ نُعومةً وخُشونةً، سَعةً وضيقاً، حَرّاً وقرّاً؛ فمَن لبسَ لباسَ الرياضةِ يشعرُ وكأنَّه مدفوعٌ للعب، ومَن لبسَ لباسَ النومِ يشعرُ وكأنّه بحاجةٍ إلى النوم، ولابُدَّ كذلكَ من تعليمِ الأولادِ – ذُكوراً وإناثاً– سترَ العورةِ وعدمِ كشفِها إلَّا لعذرٍ شرعيٍّ أو ضرورةٍ، وأنَّ العورةَ ما سُمِّيتْ عورةً إلاّ لأنَّ كشفَها من العار، إضافةً إلى التشبُّهِ بالجاهليات قديمِها وحديثِها ومَن لا خلاقَ لهُم من الحشمةِ والعفَّةِ والحياء، وهكذا... فإذا ما لبسَتِ الطِّفلةُ لباسَ النَّمِرِ، أو لبسَ الطفلُ لباسَ الأرنب، أو لبسَ اللباسَ الضيِّقِ–مُختاراً أو مُكرَهاً– كان أشبَه بجُحرِ الضَّبِّ بما فيه من ضيقِ مكانٍ، ونَتنٍ رائحةٍ، وخُبثٍ طويَّة– فلينظرْ كلُّ إنسانٍ إلى ما يلبسُ ليرَ أثرَ لباسه عليه– اكتسبَ كلٌّ منهُما صفاتِ لباسه شاءَ أمْ أبى، وإذا ما عُوِّدَ الصبيُّ على لباسِ الآباءِ والأجداد، وعُوِّدَتِ الصبيَّةُ على لباسِ الأمَّهاتِ والجدَّاتِ وفقَ هدي

الشرعِ وخِصالِ الفطرةِ الرَّبَّانيَّة، ومُراعاةِ أعرافِ البلادِ الصحيحةِ والذَّوقِ الإنسانيِّ الراقي؛ أصبحَ شخصيَّةً مُستقلَّةً لا مُستغلَّةً، عربيةً لا غربيةً، بعيدةً عن التغرُّبِ والاغتراب ومُبغضَةً التبرُّجَ والتفرنجَ. أمّا الوقتُ فهو أغلى ما عندَ الإنسانِ فـ "الوقتُ هو الحياةُ" و"الوقتُ عَمارٌ أو دَمارٌ" و"وَقتُكَ رأسُ مالكَ"؛ فعلى أولياءِ الأولادِ أن يغتنموا الوقتَ ويُعلِّموا فلذاتِ أكبادِهم ورياحينَ أفئدتِهم القرآنَ الكريمَ تلاوةً وحفظاً وفَهماً وعَملاً– كلٌّ حسبَ مُستوى تفكيرِه، ومدى استعدادِه واستيعابِه، وكذلك الحديثَ النبويَّ الشريفَ، ودُرَرَ الحِكَمِ والأمثالِ، وروائعَ القَصَصِ الشائقةِ، وحُسْنَ الخَطِّ؛ لأنَّه من مفاتيحِ الرِّزقِ، وكما قال الشاعرُ:

تعلّمْ قوامَ الخَطِّ يا ذا التـأدُّبِ ... فمَـا الخَـطُّ إلاّ زينـةُ المُتـأدِّبِ
فإنْ كُنتَ ذا مالٍ فخَطُّكَ زينةٌ ... وإنْ كُنتَ مُحتاجاً فأفضَلُ مَكسَبِ

وألاّ يُتركَ للفراغِ فـ "الفراغُ لِصُّ الزمانِ ومفتاحُ وساوسِ الشيطانِ"؛ فعلى الوالدينِ أو الوليِّ من مُربٍّ، ومُعلِّمٍ، ومُصلحٍ أن يَغتنمَ أوقاتَ الطفولةِ البريئةِ تمهيداً لبناءِ رُجولةٍ جَريئةٍ؛ وذلك بأمورٍ خمسةٍ:

أوَّلُها: بالعلمِ الإيمانيِّ الرَّبَّانيِّ الهادفِ إلى تطهيرِ القلبِ، وتزكيةِ النفسِ، وترويضِ الجسمِ، وتهذيبِ الأخلاقِ، وتبغيضِ النفاقِ؛فـ"النفاقُ لا يُطاقُ"، وإبعادِ البناتِ والصبيانِ عن مجالسِ الفسوقِ والعصيانِ وكما قال الشاعرُ:

عدوى البليدِ إلى الجليدِ سَريعةٌ ... كالرَّملِ يُوضَعُ في الرِّمالِ فيجمدُ

وأن نُعلِّمَه سُلوكياً كيف يمتنعُ عن إعانةِ الظالمِ فقد قال الشاعرُ: "

"مَن عاونَ الظَّلاّمَ كان مُنـافقـاً ... وأشـــدَّ ظُلماً منْهُمُ في أُمَّتِه"

وكذلك يُعلَّمُ الجُرأةَ الأدبيَّةَ السَّنيَّةَ فيقولَ كلاماً صَريحاً واضحاً قال الشاعرُ:

"إذا قُلتَ في شـــيءٍ نَعمْ فأتمَّهُ ... فإنَّ نَعَمْ دَينٌ على الحُرِّ واجبُ
وإلاّ فَقُلْ: لا، تَسْترِح وتُرِح بها ... لئلَّا يقــولَ الناسُ إنَّكَ كاذبُ"

فمعادلةُ:

الإنسانِ المُكرَّمِ = قويَّ الجسمِ + عظيمَ الخُلُقِ + مُثقَّفَ الفكْرِ + قادراً على الكَسبِ؛

يعي بعقلِه، ويشعرُ بقلبِه، وينطلقُ بحواسِّه؛ فيعرَفُ نفسَه، ودينَه، وربَّه، ونبيَّه، ووطنَه، وواقعَه حريصاً على وقتِه، مُنظَّماً في شُؤونِه، نافعاً لنفسِه ولغيرِه.

وثانيها: بالعملِ التطبيقيِّ الهادفِ إلى تنميةِ المواهبِ واستثمارِ الطاقاتِ(الفكريةِ واليدويةِ والحركيةِ) سبيلاً إلى إقامةِ مَعارضَ تُشجِّعُ وتُحفِّزُ، وتُظهرُ دقَّةَ الصَّنعةِ، وروعةَ المَهارَةِ، وبَراعةَ البراءةِ، وعِفَّةَ اليدِ، وسُموَّ الفكرِ، وطُهرَ القلبِ، والانتماءَ إلى الوطنِ(تاريخاً وحاضراً ومُستقبلاً) مع رفعِ شعارِ: "اجعَلوا الدِّراسةَ والمَهارةَ لأبنائِكُم مُنطلَقاً وهِوايةً".

إنّ المُلوكَ لَيَحكُمونَ على الورَى ... وعلى المُلوكِ لَتحكُمُ العُلماءُ

"العُلماءُ باقونَ ما بقيَ الدَّهْرُ؛ أعيانهُم مَفقودةٌ، وأمثالُهم في القلوبِ مَوجودةٌ" .

ثالثها: بالمجالَسة الإيمانيَّة والمُصاحَبة الأُخويّة: وذلك بأن يُصاحِبَ المُؤمنَ التقيَّ النقيَّ للحديثِ الشريفِ: "لا تُصاحِبْ إلاّ مُؤمناً ولا يأكُلْ طعامَكَ إلاّ تقيٌّ" (جامع الأصول).

وقال الشاعرُ:

وحدةُ الإنسانِ خيرٌ من جليسِ السُّوءِ عندَهُ وجليسُ الخيرِ خيرٌ من قُعودِ المَرءِ وَحدَهُ

وقال بعضُ العلماءِ الأجلَّاءِ: "لا تَصحَبْ إلاّ أ حدَ رجلين: رجُل تتعلَّم منه شيئاً من أمرِ دينكَ فينْفَعَكَ، أو رجُل تُعلِّمُه شيئاً من أمرِ دينكَ فيَقبَلَ منكَ" ولله درُّ الشاعرِ:

ولا تمشِ إلاّ مع رجالٍ قُلوبهُم تحَنُّ إلى التَّقوى وترتاحُ للذِّكْرِ

وأنْ يُصاحِبَ أكابرَ الناسِ علماً وعملاً، سُلوكاً وأخلاقاً؛ لقولِ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّم: "البَركةُ مع أكابرِكُم" (رواه الحاكم) وأن يبتعدَ عن البخيلِ؛ فالبخيلُ ليس له خليلٌ، وقولِ الشاعرِ:

وذي حرصٍ تراهُ يلمُّ وفْـــــراً لوارثِه ويدفعُ عن حماهُ
كَكلْبِ الصَّيدِ يُمسِكُ وهو طاوٍ فَريستَهُ ليأكُلَها ســـواهُ

وقال الحسنُ البَصريُّ عن البخيلِ: "إنّه يعيشُ في الدنيا عيشَ الفقراءِ، ويُحاسبُ في الآخرةِ حسابَ الأغنياءِ" .

رابعها: بالمُحافظةِ على البيئةِ ومَواردِها؛ وذلك بزراعَتِها وتعهُّدِها، وعدمِ العَبثِ بمُقدَّراتِ الأُمَّة؛ من قَطعٍ للأشجارِ، وتلويثٍ للمياه، وتخريبٍ للمُمتلَكاتِ الخاصَّةِ والعامَّة، وإشعالٍ للحرائقِ ولله دَرُّ مَن قالَ: "الحياةُ دقائق فاجْعلْها حدائق لا تُصيِّرها حرائق"؛لتبْقى "بلدُنا" دُرَّةً بينَ البلادِ، و"شامُنا" شامةً في عُيونِ الناسِ؛ لأنّها صَفوةُ بلادِ اللهِ تباركَ وتعالى فـ"شامُنا" شامٌ شريفٌ مُبارَكٌ.

قرأتُ مجْدَكِ في قلبي وفي الكُتُـــبِ شآمُ ما المجدُ؟..أنتِ المجْدُ لم يَغبِ
صَبْراً دمَشقُ على البَلْوى فكَمْ صُهِرَتْ سَبائكُ الذَّهَبِ الصَّافي فما احترَقا

وخامسها: باللعبِ الجَماعيِّ الهادفِ إلى تنميةِ الجسمِ، وترويحِ القلبِ، وتحَريكِ العقلِ، وإعمالِ الذِّهنِ وتنشيطِه (لسانياً، رياضياً، فيزيائياً، رسماً، هندسةً، بناءً، عمارةً، وزراعةً.... بالتجربةِ والبرهانِ)؛ لتكتملَ عندَ الأولادِ النظرةُ الكُلِّيةُ لجوانبِ الحياةِ، وللمُساهمةِ في إحياءِ رُوحِ المَحَبَّةِ والتعاونِ والتقديرِ بينَ الأولادِ والأهلِ والمُعلِّمينَ والمُربِّينَ؛ لأنَّهُم قادةُ الناسِ في الدُّنيا وسادةُ الناسِ في الآخرةِ، وهُمُ النُّجومُ في ظُلماتِ الجَهلِ والضَّلالِ والحَيرةِ، والرَّسولُ مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّمَ يقولُ: "إنّما بُعثتُ مُعلِّماً"، وقال أميرُ المُؤمنينَ عليّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ: "لاعِبْ ابْنَكَ سَبْعاً، وأدِّبْهُ سَبعاً، وصاحِبْهُ سَبعاً"، ونَشرِ الفضيلةِ، ونَبذِ الرذيلةِ، والابتعادِ عن أمراضِ العصرِ الفتَّاكةِ (نفسياً وجسمياً وعقلياً وروحياً) كأمراضِ التوحُّدِ؛ بَلَه "أمراضَ التوحُّشِ"؛ لما يراهُ ويُشاهِدُه من أفلامِ رُعبٍ وإثارةٍ تستولي على مُخيَّلَةِ عقلِه، وتَغرِسُ فيه الشكوكَ والأوهامَ؛ لتنعَكِسَ سُلوكاً إجرامياً داخلَ البيتِ

وخارجَه "وأمراضِ التغريب؛ بَلَهَ التخريب، وأمراضِ الجُنونِ أعني: جُنونَ بني البشرِ؛ لا جُنونَ العَجماواتِ والبقرِ إلى ما هنالك من أمراضٍ وهميَّةٍ لا يعقلُها إلاّ العالمونَ أعاذنا اللّهُ تعالى منها ما ظهرَ منها وما بطنَ...؛ ومن وصايا لُقمانَ الحكيمِ لابْنِه: "يا بُنيَّ زاحِمِ العُلماءَ برُكْبَتَيك، ولا تجُادِلْهُم فيَمقتوكَ، وخُذْ من الدُّنيا بُلاغَتكَ، وأبقِ فُضولَ كَسبِكَ لآخِرَتِكَ، ولا ترفُضِ الدُّنيا كُلَّ الرَّفْضِ؛فتكونَ عائلاً وعلى أعناقِ الرِّجالِ كلًّا، وصُمْ صَوماً يكْسِرُ شهوتكَ، ولا تَصُمْ صَوماً يَضرُّ بِصحَّتكَ؛فإنّ الصلاةَ أفضلُ من الصومِ، وكنْ كالأبِ لليتيمِ، وكالزَّوجِ للأرملَةِ، ولا تُحابِ القريبَ، ولا تجُالسِ السفيهَ، ولا تُخالطْ ذا الوجهينِ البتَّةَ؛ فإنَّ اللّهَ سُبحانَه يُحيي القلوبَ بنُورِ الحِكمَةِ كما يُحيي الأرضَ بوَابلِ السَّماءِ، وقال فتحٌ المَوصليُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالى: "أليسَ المَريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواءَ يموتُ؟ قالوا: بلى، قال: كذلكَ القلبُ إذا مُنِعَ عنه العِلمُ والحِكمَةُ ثلاثةَ أيَّامٍ يموتُ" ولقد صَدقَ فيما قالَ وحَكمَ؛ فإنَّ غِذاءَ القلبِ العِلمُ والحِكمةُ وبِهما حياتُه، كما أنّ غذاءَ الجَسدِ الطعامُ، ومَن فَقدَ العلمَ فقلبُه مريضٌ ومَوتهُ لازمٌ ولكنَّه لا يشعرُ به؛ إذ حُبُّ الدُّنيا وشغلُه بها أبطلَ إحساسَه. وقال مُعلِّمُ الكوفةِ الصَّحابيُّ الجليلُ عبدُ اللّهِ بنُ مَسعودٍ رضيَ اللّهُ عنهُ: "عليكُم بالعِلْمِ قبلَ أن يُرفَعَ ورَفْعُه موتُ رُواتِه، وإنّ أحداً لم يُولدْ عالماً؛ وإنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّم". وقال الحَسنُ البَصريُّ رحِمهُ اللّهُ تعالى: "لولا العُلماءُ لَصارَ الناسُ مِثلَ البهائمِ؛ أي: أنَّهُم بالتعليمِ يُخرِجُونَ الناسَ من حدِّ البهيميةِ إلى حدِّ الإنسانيةِ، وقال الإمامُ الشافعيُّ رحِمهُ اللّهُ تعالى:

ولولا العِلمُ ما عُرِفتْ رِجالٌ ولا عُرِفَ الحلالُ ولا الحَرامُ

وكان عبدُ الملكِ بنُ مروانَ يقولُ لِبَنيه: "تعلَّمُوا العِلمَ؛ فإنْ كنتُم سادةً فُقتُمْ، وإنْ كنتُم أوسَاطاً سُدتمْ، وإنْ كُنتُم سُوقةً عِشتُمْ"؛ فالمسؤوليةُ جسيمةٌ وكبيرةٌ، والتربيةُ إمَّا "نَهجُها ربَّانيٌّ"، وإمَّا "هوىً شيطانيٌّ". واللّهُ تعالى يقولُ: "وأنّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تتَّبِعُوا السُّبُلَ فتَفرَّقَ بِكُمْ عنْ سَبيلِه ذلِكُمْ وصَّاكُمْ بِه لَعلَّكُمْ تتَّقُونَ" [الأنعام: ١٥٣]. ويقولُ اللّهُ جَلّ جَلالُه: "وقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسؤولُونَ"[الصافات: ٢٤]. فرَحِمَ اللّهُ تعالى الإمامَينِ الجليلَين – الغزَّاليَّ والقاسِميَّ – مَن جمَعا بينَ الأصالةِ السبَّاقةِ والجِدَّةِ التوّاقةِ؛ بما تضوَّعَت كتبهُما بعَبيرِ المِسكِ وشذا العِطرِ، ومَن سارَ على دَربِ سيِّدِ البَشرِ وصاحبِ البِشرِ والطُّهرِ أبدَ الدَّهرِ. اللهُمَّ آمينَ.